الباب السابع

فى الدمامة والقبح

وفى هذا الباب نُورد صدراً من عبقرياتهم في الدمامة والقبح ووصف بعض العيوب الخِلْقية فى الرجال والنساء .

الموصوف بالقُبح :

يقال : فلان أقبح مِن زَوال النِّعم وفَوْتِ المُنَى وطلعة الرَّدِى ، ومن سنة بلانيل .

ولمَّا سمع بَشَّار بن بُرد قول حَمَّادِ عَجْرَدٍ فيه :

شَبِيهُ الوَجْـــه بالقر د إذا ما عَمِى القِرْدُ

بَكى وقال : أَلَمْ يَكْفِهِ تشبيهى بالقرد حتى جَعلَه أعمى ! هو يَرانِى فيَصِفُنِى ولست أراه فأصِفَه ! وفيه يقول بشار :

نِعْمَ الفَتى لو كان يَعبُد ربَّه ويقيم وقت صلاته حَمَّاد

وابيضَّ من شرب المدامة وجهُه وبياضُه يوم الحساب سواد

وقال المتنبى فى ابن كَيْغَلَغ :

وإذا أَشار مُحَـــدِّثًا فكأنَّهُ قِرْدٌ يُقَهْقِهُ أو عَجُوزٌ تَلْطِمُ

وقال ابنُ الرومى :

يُفْزِعُ الصِّبْيَةُ الصِّغارُ به إذا بَكى بعضهم فلم يَنَم

وجيء بِعَيَّارٍ — الذى يتَرَدَّد بلا عمل يخلّى نفسه وهواها — إلى بعض الكبار فقال لغُلامه : الطم حُرّ وَجهه ، فقال يا سيدى ليس لوَجْهِه حُرّ[1] ؛ لأنه كان قبيحاً .

وقال شاعر :

وَجْـــهٌ قبيح حامِضٌ لو عَضَّه الكلب ضَرِس

وَوَقع بين الإمام الأعمش وبين امرأته وَحْشَة[2] ، فسأل بعض أصحابه أنْ يرتضيها ويُصْلِحَ بينهما ، فدخل عليها وقال : إنَّ أبا محمد شيخُنا وفَقيهُنا فلا يُزَهِّدَنَّكِ فيه عَمَش عينيه ، وحُمُوشَةُ ساقَيه ، وضَعْفُ ركبتَيه ، وقَزَل — عرَج — رجليه ، ونَتْنُ إبطَيه ، وبَخَرُ شِدْقَيه ، فقال الأعْمَشَ : قُمْ عنا قَبَحك الله ، فقد أريتَها مِن عُيوبِي ما لم تكن تَعْرِفُه وتبصره ...

* * *

وَروى أنَّ رَجُلاً وامرأته اختصما إلى أمير من أُمراء العراق ، وكانت المرأة حَسَنَةَ المُنتَقَب قبيحة المَسْفِر[3] ، وكانَ لهـــا لسان ، فكأنَّ العاملَ — الأميرَ — مال معها ، فقال : يَعمد أحدكم إلى المرأة الكريمة فيتزوَّجها ثم يُسِيء إليها ! فأهْوَى زَوجُها فألْقَى النِّقابَ عن وَجْهها ، فقال الأمير : عليك اللَّعْنَة ، كلامُ مظلومٍ وَوَجْهُ ظالم ...

---

(١) حُرُّ الوجه : ما أقبل عليك منه وقيل : الخدّ والحر من كل شيء : أحْسَنُهُ وأكرمه .

(٢) الأعمش هو سليمان بن مهران الكوفى كان ثقة عالماً فاضلا ولقى كبار التابعين وكان لطيف الخلق مزاحا ، انظر وفيات الأعيان « لابن خلكان » .

(٣) أى أنها ترى جميلة إذا كان عليها النقاب أما إذا اسفرت بان قبحها الأصيل .

وقال أعرابى :

جَزَى الله البَرَاقِعَ من ثيابٍ عَنِ الفِتْيـــانِ شرامًا بقينا
يُوارِينَ الحسانَ فلا نراها ويَزْهَيْنَ القِبـــاحَ فيزدَهينا

* * *

وقال أبو الغَطَمَّش الحنفى :

مُنِيتُ بِزَغْرَدَةٍ كالعصا أَلَصَّ وأَخْبَثَ مِن كُنْدُشِ (١)
لها وَجْهُ قِرْدٍ إذا ازَّيَّنَتْ وَلَوْنٌ كبَيْضِ القَطَا الأَبْرَشِ (٢)
وثَدْىٌ يَجـــولُ عَلَى نَحْرِها كَقِرْبَةِ ذى الثَّلَّةِ المُعْطِشِ (٣)
لَهَا رَكَبٌ مِثْلُ ظِلْفِ الغَزالِ أَشَدُّ اصفِرَاراً مِن المِشْمِشِ (٤)

* * *

---

(١) منيت : ابتليت ، وزغردة : صاغها الله خَلْقا وخُلْقا كما يصاغ الرجال ، وقال أبو العلاء المعرى : الزغردة فيما قيل : الصغيرة الجسم وشبهها بالعصا لقلة لحمها وهُزالها ، وكندش : لقب لص كان معروفاً عندهم ، وقيل : هو العقعق — طائر على شكل الغراب ، وهو موصوف بالسرقة ، وقيل : الفأرة .

(٢) ازينت أى تزينت ، والقطا : طائر معروف ، والبرَش : نقط بيض تظهر على الجلد يخالف لونها لون الجلد .

(٣) الثَّلَّة : القطعة من الغنم ، والمعطش : الذى قد عطشت غنمه ، يصفها بعظم الثدى ، ويحتمل أن يريد أن ثديها طويل وان كانت حَالبة فقد وصفه بالطول والتشنج .

(٤) الرَّكَبُ : الفرج أو منبت شعر العانة ، يصفها بالهزال وصفرة اللون .

وفَخْذانِ بينَهمـــا نَعْنَفٌ يُجيزُ المَحامِلَ لم تَخْدِشِ (١)
وساقٌ مُخَلْخَلُها حَمْشَةٌ كساقِ الجَرادَةِ أو أَحْمَشِ (٢)
كأنَّ الثَّآليلَ فى وَجْهِها إذا سَفَرَتْ بِدَدُ الكَشْمِشِ (٣)
لها جُمَّـــةٌ فوقَها جَثْلَةٌ كمِثْلِ الخَوافِى مِنَ المُرْعَشِ (٤)

* * *

وقال أعرابىٌّ فى امرأتِهِ :

تَمَّتْ عُبَيْدَةُ إلاَّ مِن مَحاسِنِها والمِلْحُ منها مَكانَ الشمسِ والقَمَرِ
قُلْ للذى عابَها مِن عائبٍ حَنِقٍ أَقْصِرْ فرأسُ الذى قد عِبتَ للحَجَرِ

«يقول هذا الأعرابى : تَمَّت هذه المرأة فى كل شىء إلا من المحاسن فكأن تمامها فى المقابح ، والملح — أى الملاحة — بعيدة منها بُعدَ الشمسِ والقمرِ ، يصفها بأنها استكملت

---

(١) النَّعْنَفُ : المهواة بين الجبلين ، والمحامل جمع محمل : وهو الهودج وما يُركب عليه ، وهو أيضا الزنبيل الذى يحمل فيه العنب ونحوه إلى الجرين ، يصفها بأن فخذيها فى الغاية من الهزال وقلة الامتلاء بحيث لو مر بينهما المحمل لا تَخْدِشُه لما بينهما من الهُوَّة والاتساع

(٢) المخلخل من الساق : موضع الخلخال ، والحمشة : الرقيقة القليلة اللحم كما تقدم وإنما أنَّثَ وقال مخلخلها حمشة لأن المخلخل من الساق والساق مؤنثة وبعض الشىء إذا أطلق عليه اسم الكل أجرى فى الأحوال مجراه إلا أن يمنع مانع .

(٣) الثآليل جمع ثؤلول وهو : خُرّاجٌ ناتئٌ صُلب مستدير ، والبدد جمع بِدّة وهى القطع المتفرقة ، والكشمش : ضرب من العنب صغير .

(٤) الجمة من الشعر دون اللحية فى الطوال وهى تشبه القُصّة» والجثلة : الكثيرة والخوافى : ما دون الريشات العشر فى جناح الطائر المعروفة بالقوادم ، والمرعش عُنِى به النسر الذى قد هرم .

جميع أوصاف القبح ثم قال : قل للذى عابها حنقاً وغيظاً : هوّن عليك وأقلل من ذكر معائبها فليس لها إلاّ كسر رأسها بالحجر» .

وقال مسلم بن الوليد يهجو رجلا بقبح الوجه والأخلاق :

قَبُحَتْ مَناظرُه فحينَ خَبَرْتَه حَسُنَتْ مَناظِرُه لِقُبْحِ المَخْبَرِ

وقال الجاحظ : ما أَخْجَلَنِي قطُّ إلاَّ امرأةٌ مَرَّت بِي إلَى صائغ ، فقالت له : اعمل مثل هذا ، فبقيتُ مَبهوتاً ، ثم سألتُ الصائغ ؟ فقال : هذه امرأةٌ أرادَت أن أعمل لها صورَة شيطان ، فقلت : لا أدرى كيف أُصوّره ، فأتَتْ بك إلَيَّ لأُصَوِّرَهُ على صورتك .

وفى الجاحظ يقول بعضهم .

لو يُمسخ الخِنزير مَسْخاً ثانياً ما كانَ إلا دون قُبح الجاحِظ .
رَجُلٌ يَنوبُ عن الجحيم بوَجْهِه وهوالقَذَى فى عين كُلِّ مُلاحظ
ولوَ أنَّ مِرْآةً جَلَتْ تِمثالَهُ ورآه كانَ له كأعْظَم واعِظِ

وقال الأصمعى : رأيتُ بَدَوِيَّةً مِن أحسَنِ الناس وجهاً ، ولها زَوجٌ قبيح ، فقلت . يا هذه ، أترْضَينَ أن تكونى تحت هذا ؟ فقالت : يا هذا ، لعلَّه أحْسَنَ فيما بينه وبين ربه فجعلنى ثوابَه ، وأسأتُ فيما بينى وبين رَبى فجعَلهُ عذابى ! أفلا أرْضى بما رضى الله به !

* * *

وحَجَّ مُخَنَّثٌ فرأى رَجُلا قبيح الوَجـــه يستغفر ، فقال : يا حبيبى ، ما أراكَ تبخل بهذا الوجه على جهنم !

* * *

وخطبَ رجُل عَظيم الأنف امرأةً فقال لها : إنى رجل كريم المعاشرة مُحْتَمِلٌ للمكاره ، فقالت : لا شك فى احتمالك المكاره مع حَمْلِكَ هذا الأنف أربعين سنة !

وقال الحطيئة يهجو أُمَّه .

تَنَحَّىْ فاجْلِسِى مِنِّى بعيداً ... أرَاحَ الله منكِ العالَمِينا
أغِرْبالاً إذا استُودِعْتِ سِرًّا ... وكانوناً على المتَحَدِّثِينا[1]
حَياتُكِ ما عَلِمْتُ حَياةَ سُوءٍ ... ومَوتُكِ قد يَسُرُّ الصالحينا

وقال فيها أيضاً .

جَزَاكِ الله شَرًّا من عجوزٍ ... ولقَّاكِ العُقُوقَ من البَنِينِ
فقد مُلِّكْتِ أمْرَ بَنِيكِ حتى ... تركتِهُمُ أدَقَّ من الطَّحِينِ
فإنْ تُخْلَىْ وأمرَكِ لا تَصولِى ... بمُشْتَدٍّ قُواه ولا متِينِ
لِسانُكِ مِبْرَدٌ لا خير فيه ... ودَرُّكِ دَرُّ جاذبةٍ دَهِينِ[2]

المستقبح وجهه نفسه .

قال الشاعر الحُطيئة .

أرَى لِىَ وَجْهاً قَبَّحَ الله خَلْقَهُ ... فَقُبِّحَ مِن وَجْهٍ وَقُبِّحَ حامِلُهْ

ونظر بعضهم فى المرآة — وكان قبيحاً — فقال . الحمد لله الذى لا يُحمدُ على المكروه سواه . . .

---

(١) الغربال هنا : النمَّام ، والكانون : الثقيل الوخم من الناس .

(٢) الجاذبة : الناقة التى جَذَبَتْ لبنها فى ضرعها فذهب صاعداً والدهين من الابل : الناقة البكيئة التى يُمْرَى ضرعها فلا يدرّ قطره .

وينظر بعضهم فى المِرْآةِ — وكانَ قد جُدِّرَ — أصابَه الجُدَرى — فبَدَّل خلْقَه — فقال : الحمد لله الذى خلقَنى فأحْسَنَ خَلْقى ، ثُم بَدَا له فشَوَّهَنِى . . .

أخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال :

قد كانَ رَبِّى سَوَّى خَلْقَهُ فَطَغَى فأحْسَنَ الله فى تَشْويه خلْقَتِـــه

المُعَرِّض بقبح غيره :

رأى خالدُ بنُ صفوان الفرزدقَ فقال : يا أبا فِراس ، ما أنت بالذى لَمَّا رأينه أكْبَرْنه وقَطَّعْنَ أيديَهُنَّ[1] فقال له : ولا أنت بالذى قالت الفتاة لأبيها : يا أبَتِ استأجِرْه إنَّ خَيْرَ مَنِ استأجَرت القوى الأمين[2] .

وأخذ رجُلٌ مِن لحيَة آخرَ شيئاً ، فلم يَدَعْه فغَضِب ، فقال : لا تغضب ، فما منعنى أنْ أقول صَرَف الله عنك السُّوء إلا الخوف مِن أنْ يَصْرف عنك وَجْهَكَ ، فإنَّ السُّوء كله فيه . . . وقيل لرجل : كيف رأيت فلاناً ؟ فقال : لو اطَّلَعْتَ عليهم لوَلَّيت منهم فِرَاراً ولَمُلِئْتَ منهم رُعْباً .

وقال رجل للفرزدق : ما أقْبَحَ وَجهك كأنما خُلِقَ مِن أَخْراح ! فقال : انظُر هل ترَى حِرَ أُمِّك !

وقال بعضهم لأبى العيناء : يا قِرْد ! فقال : وضَرَبَ لنا مَثلا ونسى خَلْقَه .

المعتذر عن قُبحه :

قال رجل للأحنف بن قيس : «تَسْمَعُ بالمُعَيدىّ لا أن تراه» .

---

(١) يريد سيدنا يوسف وكان موصوفاً بالجمال .

(٢) يريد سيدنا موسى ويعرض بأنَّ خالداً ليس بالأمين .

فقال : ما ذَمَمْتَ مِنِّى يا ابْنَ أخِي ؟ قال : الدّمامَة وقِصَر القامَة !

قال لقد عِبتَ عَلَىَّ ما لم أؤامَرْ فيه[1] .

وقيل لحكيم : ما أقبح صورَتك ! فقال : ليس حُسْنُكَ إليك فتُحْمَدَ عليه ، ولا قُبْحِى إلىَّ فأعاتَبَ عليه ، إنَّمَا ذلك صُنْعُ البارى تعالى مَن ذَمَّه كفر .

قد يكون القبيح المظهر جميل المخبَر :

قال عبد الملك بن عمر : قَدِم علينـــا الأحنف بن قيس الكوفةَ مع المُصعَب بن الزبير ، فما رأيتُ خَصْلَة تُذَمّ إلاّ وقد رأيتُها فى الأحنف : كان ضَعْلَ الرأس[2] مُترا كِبَ الأسنان ، أشدَق[3] مائلَ الذَّقَن ، ماتِئَ الوَجْهِ ، غائِرَ العَينَين ، خفيف العارض ، أحنف الرِّجل[4] ، ولكنّه إذا تكلم جَلاَ عَن نفسِهِ[5] .

* * *

وإليك الأبيات المشهورة المتداولة التى لا تزال على قِدَمِها وابتذالها جديدة ، وقد نسبها أبو تمام فى حماسته لعبّاس بن مرداس الصحابى الشاعر ونسبها آخرون لمعاوية بن مالك مُعَوِّد الحكماء :

---

(١) ما لم أؤامَرْ فيه : ما لم أشاوَر فيه .

(٢) ضعل الرأس : صغير الرأس .

(٣) الأشدق : الذى فى خده ميل .

(٤) الأحنف : الذى تميل قدماه كل واحدة إلى أختها .

(٥) جلا عن نفسه : كلمة عبقرية يريد أنه على قبح منظره إذا تكلم أتى بما يدل على عظمته وعلو كعبه وجمال نفسه وظهر بمظهره الحقيقى .

تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيفَ فتَزْدَرِيه ... وفى أثوابِه أسَدٌ هَصُورُ(١)

ويُعْجِبُكَ الطريرُ فتبتليـــه ... فيُخْلِفُ ظَنَّك الرجل الطَّرِيرُ(٢)

بُغَاثُ الطـــير أطولُها رقابًا ... ولَمْ تَطُلِ البُزَاةُ ولا الصُّقُورُ(٣)

خَشَاشُ الطَّيرِ أكثرُها فِراخًا ... وأُمّ الصَّقْرِ مقلاتٌ نَزُورُ(٤)

ضِعَافُ الأُسْدِ أكثرها زئيرًا ... وأصْوَمُها اللَّـــواتى لا تَزِيرُ

وقد عَظُمَ البعير بغـــير لُبٍّ ... فلم يستَغْنِ بالعِظَمِ البَعـــيرُ

يُنَوَّخُ ثم يُضْرَبُ بالهَرَاوَى ... فلا عُرْفٌ لَدَيه ولا نَكِيرُ(٥)

يُقَوِّدُه الصَّبِيُّ بكُلِّ أرْضٍ ... ويَنحَرُه على الترب الصغير

فما عِظَمُ الرجال لهم بِزَيْنٍ ... ولكنْ زَينُهم كَرَمٌ وخِيرُ(٦)

* * *

---

(١) هصور يروى مَزير ، والهصور : الأسد الشديد الذى يفترس ويكسر والمزير الشديد القلب القوى النافذ ، ومن معانيه : العاقل الحاذم .

(٢) الطرير : ذو الرُّواء والمنظر والجمال والهيئة الحسنة .

(٣) البغاث — بفتح الباء وضمّها — كل طائر ليس من جوارح الطير ، أى يصيد ، ويضرب بها المثل فى اللؤم والشر ، وفى الضعف ، وفى المثل (إن البغاث بأرضنا يستنسر) يضرب مثلا للئيم يرتفع أمره .

(٤) خشاش الطير : شِرَارُها وما لا يصيد منها ، كالبغاث والمقلات : التى تلد واحداً ثم لا تلد بعد ذلك ، وقيل : التى لا يعيش لها ولد والقَلَتُ : الهلاك ، يقول : أقلتت المرأة : إذا هلك ولدها ، والنزور : القليلة الأولاد .

(٥) يُنَوَّخ : يبرك ، نوّخ الجمل وأناخه فاستناخ : أبركه فبرك .

(٦) الخِيرُ : الكرم وهو أيضاً الشرف .

القبيح المتغازل :

قال بعضهم :

جارِيَةٌ أعجَبَهـــا حُسنُها ... ومثلُها من النـــاس لم يُخْلَقِ
قُلْتُ لهـــا : إنى مُحِبٌّ لها ... فأقبَلَتْ تضحكُ مِن مَنْطِقِ
والتفتت نحو فتـــاةٍ لها ... كأنَّها الرَّبَرَبُ فى القُرْطُقِ[1]
قالت لها قولى لهـــذا الفَتى ... انظُرْ إلَى وَجْهِك ثم اعشَقِ

وقال آخر :

تَيسٌ تَنَفَّقَ بالدّلال ليُشْتَهَى ... فازداد مقتًا بالدلال وما نَفَقْ[2]
فكأنَّه مِن يُبْسِـــه وسَوَاده ... مِحْرَاكُ تَنُّورٍ تَلَوَّى فاحترق[3]

وقيل للحُظْوَة : أين تذهبين ؟ قالت : أُقارِنُ القِباح .

وقد رأينا كثيرًا من الأزواج القِباح وزوجاتهم فى الغاية من الجمال . والعكس ، فسبحان مقسم الحظوظ ، والمؤدِم بين القلوب :

* * *

وكان المغيرة بن شعبة قبيحًا أعورَ ، فخطب امرأةً ، فأبت أن تتزوَّجَه ،

---

(١) الربرب : القطيع من الظباء ، ومن بقر الوحش ، والقرطق : قَباء أبيض وهو تعريب كُرْتَه .

(٢) نَفَق من نفق البيع : راج وتنفق بالدلال حاول بالدّل أن يروج .

(٣) التَّنُّور : الفُرن يخبز فيه وهو تفعول من النار وقيل : فارسيّ معرب ، والمحراك : الخشبة التى تحرّك بها النار .

فبعث إليها : إن تزوجتنى ملأت بيتك خيراً ، ورحمك أيراً ، فتزوجت به ، وسُئلت عنه امرأة طلقها فقالت : عسل بما نية فى ظرف سوء . . .

وكان ذو الرمة الشاعر يُشبب بمية ، وكانت من أجمل النساء ، ولم تره قط فجعلت لله عليها بدنة حين تراه ، فلما رأته رأت رجلا دميما أسود ، فقالت : واسوءتاه ! وابؤساه ! فقال : ذو الرمة :

على وجهِ مَيٍّ مَسحةٌ من مَلاحةٍ ... وتحت الثياب الشَّينُ لو كانَ باديا

ألَم ترَ أن الماء يخبُثُ طعمُهُ ... وإنْ كان لونُ الماء أبيضَ صافيا

* * *

وذكر أعرابى امرأةً حسنةَ اللفظ قبيحةَ الوجهِ فقال : تُرخِى ذيلَها على عُرقوبَىْ نَعامَة ، وتُسدِلُ خِمارَها على وجهٍ كالجُعالَة[1] .

* * *

وكانَ بعضُ المعلمين يقعد أبناء الميـاسير والحسانَ الوُجوه فى الظلِّ ، ويُقعد الآخَرين فى الشمس ، ويقول : يأهلَ الجنّة ، ابْرُقوا فى وجوه أهل النار .

* * *

وكان جافظ إبراهيم شاعر مصر الظريف فى حَفْلٍ ، وكان يمينه غلام جميل . وعن يساره دميم ، فقال للدميم : إنى حين أنظر من عن يمينى أسكر وإذا نظرت إليك أصحو وأفيق . . .

* * *

---

(١) الجعالة : الخرقة التى تُنزَلُ بها القِدْرُ (عن النار) .

عبقرياتهم فى مَقابح وعُيوبٍ شتى :

فى الجذام :

فى الحديث الشريف (لا عَدْوَى ولا طِيَرَةَ ولا هامَةَ ولا صَفَرَ ولا غُولَ وفِرَّ من المجذوم كما تَفِرُّ من الأسد) .

الطِّيَرَة : مصْدَرٍ تَطَيَّر طِيَرَةً كتَخَيَّر خِيَرَةً ، ولم يَجِئْ من المصادر هكذا غيرهما ، وأصله التطيُّر بالسوانح والبوارح من الطَّير والظِّباء وغيرهما ، وكانَ ذلك يَصُدُّهم عن مَقاصِدهم فنفاه الشرعُ وأبْطَلَه ونَهَى عنه وأخْبَرَ أنَّه ليس له تأثير فى جَلْب نفع ولا دَفْع ضَرَر ، وفى الحديث : ثلاثةٌ لا يَسْلَمُ منها أحد : الطِّيَرَة والحَسَد والظَّن ، قيل : فما نَصْنع ؟ قال : إذا تطَيَّرْتَ فامْضِ ، وإذا حَسَدْتَ فلا تَبْغ وإذ ظَنَنت فلا تُصَحِّحْ ، والهامَة فى الأصل : الرأس ، وكانت العربُ تزعم أنَّ رُوحَ القتيل الذى لم يُدْرَكْ بثأره تَصيرُ هامَةً ، فَتَزْقُو عند قبره تقول : اسْقونى اسْقونى ، فإذا أُدْرِكَ بِثَأْرِه طارَتْ ، قال ذو الإصْبَع العَدْوَانىّ :

يا عَمْرُو إنْ لا تَدَعْ شَتْمِى ومَنْقَصَتِى ... أَضْرِبْكَ حتى تقول الهامَةُ اسقونى

«يريد أقْتُلْكَ» ومن قولهم : هذا هامَةُ اليَوم أوغد ، أىْ يموت اليومَ أو غَدًا ، وقيل : كانوا يزعمون أنَّ رُوحَ الميت تصير هامة . فتطير ، ويسمُّونه : الصَّدَى ، فنفاه الإسلام ونَهاهم عنه ، وقيل : الهامة : البُومة ، وقد كانوا يتشاءمون بها . أمَّا الصَّفَر فقد كانت العرب تزعم أنّ فى البَطن حَيَّةً يقال لها : الصَّفَر تُصيب الإنسان إذا جاع وتؤذيه وأنَّها تُعْدِى فأبطل الإسلام ذلك ، وقيل غير هذا ، أمَّا الغول فهو أحد الغِيلان وهى كما زعموا جنس من الجن والشياطين كانت العرب تزعم أن الغول فى الفلاة تتراءى للناس فتتغوَّلُ

تَغَوُّلا أى تتلوَّن تلوُّناً فى صُوَرٍ شتى وتغولهم : أى تُضلُّهم عن الطريق وتُهْلكُهم ، فنفاه النبى (صلعم) وأبطله ، و بعد فمعنى لا عدوَى الخ أنَّ مُصاحَبَة المعلول ومؤاكلَتَهُ لا تُوجب حصول تلك العلة ، لكنها تكون من الأسباب المُقَدَّرَة التى تعلَّقت مشيئةالله بترتب العلة عليها بالنسبة إلى بعض الأبدان ، فعلى العاقل أن يتحرَّز عنها ما وَجَد لذلك سبيلا وعليه مع ذلك ألاَّ يَدَع الأوهامَ تتسرب إليه .

و يَكل أمرَه إلى الله ، ومن ثمَّ قال : وَفِرّ من المجذوم كما تَفِرّ من الأسد .

* * *

ومرَّ سليمانُ بن عبد الملك بالمجذومين فى طريق مَكَّةَ ، فأمرَ بإحراقهم وقال : لو كانَ الله يريد بهؤلاء خيراً ما ابتلاهم بهذا البلاء . . .

* * *

وعَن قتادَة : أنَّ مجذوماً دَخَلَ على عبد الله بن الحارث فقال : أخرِجوه ، قالوا : وَلِمَ ؟ قال : بَلَغَنِى أنَّه ملعون .

* * *

البَرَص — ويقال له : الوَضَح — :

كَانَ الشاعر الأموىّ المُغيرَةُ بن حَبناء بن عَمرو بن ربيعة بن حنظلَة يأكُلُ يَوْماً مع المُفَضَّل بن المُهَلَّب بن أبى صُفرة ، فقال له المُفَضَّلُ :

فَلَمْ أرَ مِثْلَ الحَنْظَلِىِّ ولَوْنِه ... أَكِيلَ كِرامٍ أوْجَلِيسَ أمِيرِ

فرَفَعَ المُغيرَةُ يَدَهُ مُغضَباً ، ثُمَّ قالَ :

إنِّى امرُؤٌ حَنْظَلِىٌّ حين تَنْسُبُنِى ... لا مِلْعَتِيكٌ وَلا أخْوَالِىَ العَوَقُ

لا تَحْسَبَنَّ بياضاً فِىَّ مَنْقَصَةً ... إنَّ اللهاميمَ فى أقْرابِهـا بَلَقُ

«لا مِلْعَتِيك : أى لست من العتيك ، وهى قبيلة ، والعَوَق مِن يَشْكُرَ وهم أخوال المُفَضَّل ، واللهاميم جمع لِهْميم ولُهموم : الجواد السابق يجرى أمامَ الخيل . وسمى كذلك لالتهامه الأرض ، وكذلك يقال للجواد من الناس الذى يسبقهم إلى المكارم ، والأقراب جمع قُرُب وهى الخاصِرَة ، وفى أقرابها تروى : فى ألوانها» .

وَلَمَّا بَلَغَ المهلَّبَ ما جرَى تناوَل المُفَضَّلَ بلِسَانِه وشَتَمَهُ ، ثُمَّ بَعَث إلى المغيرة بعشَرَة آلافِ درهم واستَصْفَحه عن المهلب واعتذر إليه ، فقَبِلَ رِفْدَه ، وعَذَرَه ، وانقطع بعد ذلك عن مُؤاكَلَةِ أَحدٍ منهم .

* * *

وكان بَلْعاء بنُ قَيْسٍ أَبْرَصَ ، فقال له قائلٌ : ما هذا بِكَ يا بَلْعاء ؟ فقال : سَقْفُ الله جَلاَه .

* * *

وقال شاعر :

أَيَشْتِمُنى زَيْدٌ بأَنْ كُنْتُ أَبْرَصاً ... فَكُلُّ كريمٍ لا أَبَالَكَ أَبْرَصُ

وقال آخرُ :

نَفَرَتْ سَوْدَةُ مِنِّى إذْ رأَتْ ... صَلَعَ الرأسِ وفي الجِلْدِ وَضَحْ

قلتُ : يا سَوْدَةُ هذا والذى ... يَفْرِجُ الكُرْبَةَ عَنَّا والكَلَحْ

هُوَ زَيْنٌ لِيَ فى الوَجْـــهِ كما ... زَيَّنَ الطِّرْفَ تَحَاسِينُ القُزَحْ

«الوَضَح : البَرَص ، والكلح هنا : الشِّدَّة ، والطِّرْف : الفرس الكريم والقَزَح : خطوط مِن صُفْرَةٍ وحُمْرة وخضرَة ، الواحدة . قُزْحَة ، ومنه قَوسُ قُزَحَ : طرائق مُتَقَوِّسَة تبدو فى السماء أيَّامَ الربيع غِبَّ المَطَرِ بحُمْرَةٍ وصُفْرَةٍ وخُضْرَةٍ» .

* * *

وقال كُثَيِّر عَزَّة يهجو أصهارهُ بأنهم بُرْصُ الاستاه :

وَيحْشَرُ نُورُ المسلمينَ أمامَهم ويُحشرُ فى أستاهِ ضَمْرَةَ نُورُها

وكانَ أَيْمَنُ بنُ خُرَيم بن فاتِكٍ الأسدى أَبْرَصَ وكانَ أثيراً عند عبد العزيز بن مروانَ ، فعَتَبَ عليه أيمَنُ يوماً فقال له : أنتَ طَرِفٌ مَلُولَةٌ[1] فقال له : أنا مَلولة وأنا أُوَاكِلُكَ مُذْ كذا ؟ فلَحِقَ ببشر بن مروان فأكرمَهُ واختَصَّهُ ولم يَكُنْ يَؤاكِلُه ، فدخلَ عليه يوماً وبين يَدَيْهِ لَبَنٌ قد وُضِعَ ، فقال : قَدْ حَدَّثْتُ نَفْسِي البارحَةَ بالصَّوم ، فلمَّا أصبحْتُ أَتونى بهذا وهم لا يعلمون ، وَلا أَرَى أحداً أَحَقَّ به منك ، فَدُونَكَهُ .

* * *

وَأَصابَ أبا عَزَّةَ الْجُمَحِيَّ وَضَحٌ — بَرَص — فكانَ لا يُجالَسُ ، فأَخَذَ شَفْرَةً وَطعَنَ فى بَطنِهِ ، فصارَت[2] الشَّفْرة وخَرج ماله أَصفَرُ وَبَرِيءٌ ، فقال :

لاَهُمَّ رَبَّ وائِلٍ ونَهْد وَرَبَّ مَنْ يَرْعَى بياضَ لَحْدِى[3]
أصبحتُ عبداً لك وابنَ عَبدِ أَبْرَأْتَ مِنِّى بَرَصاً بِجِلْدِى
مِن بَعْدِ ما طَعَنْتُ فى مَعَدِّى[4]

---

(١) الطرف : كالكَتِف : من لا يثبت على امرأة ولا صاحب ، والملولة : الكثير الملل والسأم لعشيره .

(٢) مارت الشفرة : نفذت إلى داخل الجسم .

(٣) نهد : قبيلة من اليمن .

(٤) المعدّ : البطن .

عظم الأذن وصغرها :

قالوا : إنَّ طُول الأُذن دليلٌ على طُول العُمْر .

وَقُدِّم رَجُلٌ للقَتْل ، وكانَ طَويلَ الأُذن ، فقيل له : أليسوا قد زعموا أنَّ طولَ الأذنِ دليلُ طول العمر ؟ فقال : لو تركوني لطال ولكن حالوا بيني وبينه ! وأُحْضِرَ رَجُلٌ طويل الأُذن للقتل فجَعَلَ يَلْمِسُ أُذُنَيه ويقول : واضَيَاعَ أَمَلِه وانقطاعَ رجائه . . .

ويقال لِصَغَرِ الأذن السَّكَكُ : فالسَّكَكُ : صِغَرُ الأُذُن ولزوقُها بالرأس وَقِلَّةُ إشْرَافِهـــا ، ويقال مِن ذا سَكَّهُ يَسُكُّهُ : إذا اصطلَمَ أُذُنَيْه — قَطَعَهُمَا — وَمن ذلك : استَكَّت مَسامِعُهُ أىْ صَمَّت وَضاقت ، قال النابغة الذُّبيانى :

أَتانِى أَبَيْتَ اللعنَ أَنَّكَ لُمْتَنِى وتلك التى تستَكُّ منها المسامِعُ

وَالعربُ تقول : كُلُّ سَمَكَّاء تَبيض ، وَكُلُّ شَرْفاء تَلِد ، فالسكَّاءُ : التى لا أُذَنَ لها ، والشَّرْفاءُ : التى لها أُذُن وإن كانت مَشقُوقةَ ، قال الجاحظ : وَلاندرى لِمَ كانَ الحيوانُ إذا كانَ أَشرفَ الآذانِ وَلَدوإذا كانَ مَمْسوحاً باضَ .

الآدر — القيلط :

الآدَر أو القَيْلَط أو القَيْلِيط : مَن انتفخَت خُصْيتاهُ بِماء يُصيبُها ، وهذا الداء يُسَمَّى الأُدْرَة أو القَيْلَة المائية .

يروَى أن رجلا أحدَب سَقَطَ فى بئر فذَهَبَت حَدَبَتُه ، فصارَ آدَرَ ، فدخلوا يُهَنِّئُونَه ، فقال : الذى جاء شرٌّ من الذى ذهَب . . .

وقال طرفة بن العبد :

فَا ذَنَنَا فى أَنْ أداءتْ خُصاكم وأَنْ كنتُمُ فى قومِكُم مَعْشرًا أُدْرَا
إذا جَلسوا خَيَّلْتَ تحت ثِيابِهم خرانِقَ تُوفى بالضَّغِيب لها نَذْرَا

«أداءت : صارت ذات داء ، وخيَّلْتَ : ظَنَنْتَ ، والخرانق : جمع خِرْنِق وهو الفَتِىُّ من الأرانب أو ولَد الأَرْنب ، والضَّغِيب : صوت الأرنب والذئب» .

وقال النابغة الجعدى :

كَذى داءٍ بإِحْدَى خصيْتَيْهِ وأُخْرَى لَمْ تَوَجَّعْ مِن سَقَامِ
فَأَلْقَى ثَوبَهُ حَـــولاً كَرِيتًا على شعراءَ تُنْقِضُ بالبَهـــامِ

«حولا كريتا : تامَّ العَدَد يقال : حَولٌ كريت وسَنَةٌ كَريتٌ وكذلك اليومُ والشهْر ، أراد بالشعراء : خُصْيَةً كثيرة الشعر النابت عليها ، وقوله : تنقِض بالبهام فانَّه يقال : انقَضتُ بالعنز إنقاضاً : إذا دَعَوتَها ، والبهام : جمع بَهمه : الصغير من أولاد الضأن والمعز والبقر ، من الوَحش وغيرها ، ويريد الجعدى بقوله تُنقِض بالبَهام : أدْرَةً فى خُصْيَتَيْهِ إذا فَشَّتْ خرج لها صَوتٌ كتصويت النَّقْضِ بالبَهْم إذا دعاها» .

العرج :

قال بعضهم :

وَمَا بِىَ مِن عَيبِ الفَتَى غيرَ أَنَّنِى جَعَلْتُ العَصَا رِجْلاً أُقِيمُ بها رِجْلِى

وقال آخر :

قد كُنتُ أَمْشِى على رِجلَيْنِ مُعْتَدِلاً فاليَومَ أَمْشِى على أُخْرَى مِنَ الشَّجَرِ

وقال آخر : * قد صِرْتُ أَمْشِى بثلاثِ أَرْجُلِ *

وقال :

إذا غدَوا وعِصِيُّ الطَّلْحِ أَرْجُلُهُمْ كما يُنْصَّبُ وَسْطَ البيعةِ الصُّلُبُ

* * *

وكانَ عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطَّاب أَعْرَجَ ، وكانَ والِيَ الكوفة ، وَوَلِيَ شُرْطَةَ الكوفة القَعقاعُ بْنُ سُوَيد ، وكانَ أعرجَ ، فقال الحَكَم بنُ عَبْدَل وكانَ هو الآخرُ أعرج :

أَلْقِ العَصَا وَدَعِ التناوُشَ والْتَمِسْ عَمَلاً فهٰذِي دولَةُ العُرجانِ

لِأَمِيرِنا وأَمِيرِ شُرْطَتِنَا مَعًا يا قومَنا لكليهما رِجْلانِ

«التناوش : التناول باليد ، وهو هنا كناية عن السُّؤال ، وفي رواية : ودَع التخامع ، والتخامع : التظاهر بالخمع وهو العرج ، يقال : خمعت الضَّبعُ خمعاً وخموعاً وخمعاناً : إذا ظلعت في مشيتها كأنَّ بها عرجاً» .

العور والعمى :

قيلَ لأعْوَر : أَعْمَى اللهُ عينَك ، قال : قد أُجيبَ نِصْفُ دَعْوتِك . . .

وَتنادَرَ قوم في مجلس فقال أحدهم : مَن كانَ أَعْوَرَ فهو نِصفُ رجل ، ومَن لا يحسن السباحة فهو نِصفُ رجل ، وَمَن لا يتزوّج فهو نصف رجل ، وكانَ معهم رجل اجتمعت فيه هذه المعاني كلها فقال : إنِّي أحتاج إلى نصف رجل حتى أكونَ لا شيءَ . . .

* * *

وقال إبراهيم النَّخَعِيُّ لِسليمانَ الأعمش وأراد أن يُماشِيَه : إنَّ الناسَ

إذا رأونا معاً قالوا : أعورُ وأعمشُ ، قال : ما عليك أنْ يأثموا وتؤجر ؟ قال : ما عليك أنْ يسلموا ونسلم !

* * *

وتماشى أعوران فقال أحدُهما :

أَلَمْ تَرَنِي وعَمْرًا حين نَمْشِي ... نُرِيدُ السُّوقَ ليس لنا نَظِيرُ
أُماشِيهِ على يُمْنَى يَدَيْهِ ... وفيما بيننا رَجُلٌ ضَرِيرُ(١)

* * *

وقال عبد الله بن عبّاس بعد ما كفَّ بَصَرُه — وقيل : هما لحسّان بن ثابت :

إنْ يأخُذِ اللهُ مِن عَيْنَيَّ نُورَهُما ... ففي لِسانِي وقَلْبِي منهما نُورُ
قلبٌ ذَكِيٌّ وعَقْلٌ غيرُ ذِي دَخَلٍ ... وفي فَمِي صارمٌ كالسيف مأثُورُ

وقد أخذ أبو يعقوب الخُزَيمي هذا المعنى وكان أعمى :

فإن تَكُ عيني خبا نُورُها ... فكَمْ قبلَها نُورُ عَينٍ خبَا
فلَمْ يَعْمَ قلبي ولكنَّما ... أرَى نُورَ عيني إليه سَرَى
فأسْرَجَ فيه إلى ضَوْئِهِ ... سِراجاً مِن العِلْمِ يَشْفِي العَمَى

---

(١) يقول إنه لمّا ماشاه على الصفة التى وصف وكانت عينه العوراء هى اليسرى وعين صاحبه العوراء هى اليُمْنى كانا كأن بينهما أعمى وهو معنى طريف ، ومثله :

هى عوراء باليمين وهذا ... أعورٌ بالشِّمال وافقَ شَنًّا
بين شخصَيْهما ضرير إذاما ... قَعَدَتْ عن شِماله تتغنى

وقال الخُزَيمى أيضاً :

أُصْغِى إلَى قائِدِى لِيُخْبِرَنِى ... إذا التَقَيْنَا عَمَّنْ يُحَيِينِى
أُرِيدُ أَنْ أَعْدِلَ السَّلامَ وَأَنْ ... أَفْصِلَ بين الشَّرِيفِ والدُّونِ
أَسْمَع ما لا أرَى فأكْرَه أَنْ ... أُخْطِئَ والسَّمْعُ غيرُ مأمُونِ
لله عَينِى التى فُجِعْتُ بِهَا ... لَوْ أَنَّ دَهْراً بِهَا يُوَاتِينِى
لَوْ كُنتُ خُيِّرْتُ ما أخَذْتُ بها ... تَعْمِيرَ نُوحٍ فى مُلْكِ قَارُونِ

وَقَال الجُنَيد : حضرت أبا على الأشنانِىَّ — وكان ضريراً — فقرأ قَارئٌ (يَعلَمُ خائِنَةَ الأَعْيُنِ وما تُخفِى الصدور) فقال : سَقَطَ عَنِّى نِصْفُ العمل . . .

وَوُلِدَ بَشارُ بن بُرْدٍ أَعْمَى — أَكْمَهَ — فما نَظَر إلى الدنيا قَطُّ ، وكان يُشَبِّه الأشياء بَعْضَهَا ببعض فى شِعْرِه فيأتى بما لا يَقْدِر البُصَرَاءُ أن يأتُوا بِمِثْله ، فقيل له يوماً — وقد أَنْشَدَ قوله :

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُءُوسِنَا ... وأَسْيَافَنَا لَيلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهْ

ما قَال أحدٌ أَحْسَنَ من هذا التشبيه ، فَمِن أين لك هذا ولَمْ تَرَ الدنيا قط ولا شيئاً فيها ؟ فقال : إنَّ عَدَمَ النَّظر يُقَوِّى ذكاء القلب وَيَقْطَعُ عنه الشُّغلَ بما يُنْظَرُ إليه من الأشياء فيَتَوَفَّرُ حِسُّه وتذكو قريحته ، ثم أَنْشَدَهم قوله :

عَمِيتُ جنيناً والذَّكاءُ من العَمَى ... فجئتُ عَجِيبَ الظَّنِّ لِلْعِلْمِ مُوثِلاَ
وغاضَ ضِياءُ العَينِ لِلْعِلْمِ رافِدًا ... لِقَلْبٍ إذا ما ضَيَّعَ الناسُ حَصَّلاَ

وقيل لبشار : ما أذْهَبَ الله عينى امرئٌ إلاَّ عَوَّضَهُ عنهما فما الذى عَوَّضَكَ ؟ قال : ألاَّ أرَى مِثلك . . .

وقيل لرجل قد ذهب بصره : قد سُلِبْتَ حُسنَ وَجهك ، فقال : لكنِّى مُنِعتُ النظر إلى ما يُلْهِي وعُوِّضْتُ الفكرَة فيما يُجْدِى . . . فحُكِى ذلك لبعض البلغاء ، فقال : العفاءُ عَلَى التعزِّى إلاَّ بمثل هذا الكلام . . .

وقال فلان : كُنَّا مَعَ بَشَّارٍ فأتاه رَجُلٌ فسأله عن منزل رجل ذكَرَه له ، فجَعَل يُفَهِّمُه ولا يَفْهَم ، فأَخَذَ بيَدِه ، وقام يَقودُه إلى منزل الرجل وهو يقول :

أَعْمَى يَقودُ بَصِيراً لا أبا لَكُمُ ... قد ضَلَّ مَن كانت العُمْيانُ تَهْدِيهِ

حتى صارَ به إلَى منزلِ الرجل ، ثُمَّ قال له : هذا هُوَ منزلُهُ يا أعْمَى . . .

* * *

وقالوا : الأعمى مكابر ، والأعور ظَلُوم ، والأحول تيَّاه . . .

وقال شاعِر يشكو ضعفَ بَصَرِه :

أشْكُو إلى اللهِ أهْوالاً أُكابِدُها ... إذا سَرَى القَوم لم أُبْصِر طَرِيقَهُمُ

الحول :

خرجَ هِشامُ بن عبد الملك فتلقَّاه أعْوَرُ فقال : إنِّى تشاءمتُ بِعَورِك ! فقال له الرجل : شُؤْمُ الأعور عَلَى نفسه وشُؤْمُ الأحْوَلِ عَلَى النـــاس وكان هِشامٌ أحْوَل ، فخَجِل . . .

وأنشد أبو النجم هشاماً أرجوزَته التى أولها * الحمد لله الوَهوبِ المجْزِل * فلم يَزَل هشامٌ يُصَفِّقُ بيَدَيه حتى إذا بلغَ قوله فى صِفَةِ الشمس :

حتى إذا الشمسُ جَلاَها المُجتَلِي ... بين سمـــاطَىْ شفَق مُرَعْبَل

صَغْواء قد كادَت ولمـــا تَفعَلِ فهْى فى الأُفْقِ كعين الأحول

أمَر بِوَجْءِ رقبته وَإخراجِهِ[1]

وعُرِضَ على أمير أثوابُ خَزٍّ وفى المجلس أعورُ وأحولُ ، فقال الأعور للأحول : بهذا الثوب عَيبٌ ، فقال : يا صَفْعانُ ، إنَّ بَصَرَكَ بعينٍ واحدةٍ أحدُّ من بَصَرِى بعينَيْنِ ! فقال الأعور : دُرَيْهِمٌ جيِّدٌ خيرٌ من دِرهَمَينِ مُزَيَّفَينِ . . .

واشترى أبو الأسود الدُّؤلى جاريةً — فتاةً — حَوْلاء ، فأغارَ امرأتَهُ أُمَّ عَوفٍ ، وكانت ابنةَ عَمِّه ، وكانت تُشارُّه — تخاصمه — كُلَّ يومٍ وتقول : مَن يَشترى حَوْلاء ؟ فلما أكثرَتْ عليه قال :

يَعيبُونَها عِندى ولا عَيبَ عندها سِوَى أنَّ فى العينَينِ بعضَ التأخُّرِ

فإنْ يَكُ فى العينَيْنِ سُوءٌ فإنَّهـــا مُهَفْهَفَةُ الأعلى رَداحُ المُؤَخَّرِ[2]

كبر الأنف وقبحه :

خَطَبَ رجل قبيح الأنف امرأةً فقال : عندى احتمال للمكروه ووفاء عظيم . . . فقالت المرأة : ما أشُكُّ فى احتمالك للمكروه لأنَّك تحمل هذا الأنف أربعين سنة . . .

وقال بعضهم : رأيتُ أعرابياً أنفُهُ كأنه كُوزٌ من عِظَمِه ؛[3] فرآنا

---

(١) المرعبل : الممزق ، وصغواء : مائلة للغروب يقال : صغت الشمس تصغوصغواً فهى صغواء ، ووَجْءُ الرقبته كناية عن ضربه ولكزه .

(٢) امرأة رداح : ضخمة الأوراك .

(٣) الكور : جمعة كيزان وأكواز

نصحك فقال : مايضحكـكم ! والله لقد كُنَّا فى قوم ما يُسَمُّونا إلاَّ الافَيْطِس

* * *

وقال بعضهم :

إذا أنت أقبلْتَ فى حاجَـــةٍ فَكَلِّمْهُ إنْ شِئْتَ مِن خَلْفِهِ
فإنْ أنتَ وَاجَهْتَهُ فى الكلا م لَمْ يَسْمَعِ الصَّوتَ مِن أَنْفِهِ

وقال ذو الإصبَع العَدْوانى :

أرى شَعَراتٍ عَلَى حاجـــبَىَّ بِيضاً نَبَتْنَ جميعاً تُؤاما (١)
ظَلِلْتُ أُهاهِى بِهِنَّ الكِلا بَ أَحْسَبُهُنَّ صوراً قِياما (٢)
وأَحْسَبُ أَنفِى إذا ما مَشَيْـــتُ شخصاً أمامِى رآنى فقاما

* * *

ومِن الطريف قول بعضهم :

لَكَ أَنْفٌ ذو أُنوفٍ أُنِفَتْ منـــه الانوفُ
أنتَ فى القُدْسِ تُصَلِّى وهو فى البيتِ يَطوفُ

* * *

الحدب :

قال الجاحظ : مَن اعتراه الحَدَب طال أَيْرُه وكَثُرَ خُبْثُه وظَرَفهُ .

وأُتِىَ بَعضُ الولاة بأَحْدَبَ جَنَى جنايَةً ، فقال له الوالى : لأَضْرِبَنَّكَ ضَرْباً يقيمُ ظَهْرَك ، فقال الأحدب : إنك إذَن لَعَظيمُ البَرَكَةَ . . .

---

(١) أُهاهى : أغرى ، والصوار : القطيع من البقر .

(٢) تُؤَامات جمع توءم

وقال بعضهم :

تَعْدُو الجيـــادُ بخالدٍ فكأنما تعدو بقِرْبَهْ
تَيْسٌ أَنَبُّ من التيو س فكأنَّ لِحْيَتَهُ مِذَبَّهْ

« نَبَّ التيسُ : صاح عند الهياج ، والمِذَبَّةُ : ما يُذَبُّ به الذباب — المِنْشة — »

الثقلاء :

ومِمَّا يتدرج فى هذا الباب عبقرياتهم فى الثقلاء .

قالوا : مَن خافَ أَنْ يُثَقِّلَ لَمْ يَثْقُلْ .

ومثله : إذا عَلِمَ الثقيلُ أنه ثقيل فليس بثقيل .

وقال بَخْتِيشوع الطبيب للمأمون : لا تُجالِسِ الثقلاء فإنَّا نجد فى الطِّبِّ : مُجالَسَةُ الثُّقلاء حُمَّى الروح .

وكان أبو هُرَيرَةَ إذا استثقل رَجلا قال : اللهم اغفِر له وأرحْنا منه .

وكتب رجل عَلَى خاتَمِهِ « أَبْرَمْتَ فَقُم » فكان إذا جلس إليه ثقيل ناوَلَه إياه .

وقال صدَقة بن خالد : أَتَيتُ الكوفَةَ ، فجَلَسْتُ إلى أبى حنيفَةَ ، فقامَ رَجُلٌ مِن جُلَسائِه ، فقال :

فما الفيلُ تَحْمِلُهُ مَيِّتًا بأثقَلَ مِن بَعض جُلَّاسِنا

مما حَمَلْتُ عنه شيئا . . .

وقال بعض الشعراء :

إنى أُجالِسُ مَعْشَرًا نَوْكَى أَخَفُّهُمْ ثَقِيلُ
قَوْمٌ إذا جالَسْتَهُم صَدِئَتْ بقربهم العقولُ

لا يُفهِمونى قولَهُم وَيَدِقُّ عنهم ما أقول
فَهُمُ كثير بى وأعْـــلَمُ أنَّنِى بِهِمُ قليل

ومَرَّ رجل بصديق له ومعه رجل ثقيل ، فقال له : كيف حالُكَ ؟ فقال :

وقائلٍ كيف أنت قلتُ له هذا جليسى فما تَرَى حالى

وقال من لا أذكر اسمه :

أنت يا هـــذا ثقيلْ وثقيـــل وثقيلْ
أنت فى المظهـــر إنسا نٌ وفى المخـــبر فيلْ
لو تعرَّضْتَ لظـــلٍّ فُسدَ الظـــلُّ الظليلْ

وقال الأعمش فى ثقيل كان يجلس إلى جانبه : والله إنِّى لأُبْغِض شِقِّى الذى يليه منى :

وكان حمَّاد بن سَلَمَةَ إذا رأى من يستثقلُه يقرأ (رَبَّنَا اكشف عنا العذاب إنَّا مُؤمنون) .

وقالت عائشة رضى الله عنها : نزلَت آيةٌ فى الثُقلاء (فإذا طعِمْتُم فانتَشِرُوا ولا مُستأنسِين لحديث) .

وقال الشعبى : مَن فاتَتْه ركعتا الفجر فليلعَنِ الثُّقلاء .

وسلَّم ثقيل على بعض الظرفاء فقال : وعليك السلام شهراً . . .

وسُئِل إنسان له ثلاث بنين ثقلاء : أىُّ بَنِيك أثقَلُ ؟ فقال . ليس بعد الكبير أثقل مِن الصغير إلا الأوسط .

وقيل لجالينوس . لِمَ صارَ الرجل الثَّقيل أثقَلَ من الحِمْل الثقيل ؟ قال :

لأن ثِقَلَهُ على القلب دون الجوارح ، والحِمْلُ الثقيـــل يستعين القلبُ بالجوارح عليه .

وسمع الأعمش كلامَ ثقيلٍ فقال : مَن هذا الذى يتكلم وقلبى يتألَّم !

وقال رجل لغُلام هاشِمِيٍّ : يا بغيض ، فشكاه إلى أبيه ، فقال . قد علمتُ أنك بغيض ، فكرِهْتُ أن أقولَ لك حتى يكونَ بغضُك بإسنادك . . .

وكان أبو العتاهية يقول لابنه محمد : أنت والله يا محمد ثقيل الظِّلِّ ، مُظلمُ الهواء ، حامد النسيم ، باردٌ حامض منتن . . .

وقال سهل بن هارون : مَن ثقل عليك بنفسه ، وغمَّكَ فى سؤاله ، فأعِرْهُ ، أذناً صمَّاء ، وعيناً عمياء .

وقال بعضهم :

يا من تبرَّمَت الدنيا بطلعته ... كما تبرَّمت الأجفانُ بالسَّهَدِ
إنِّى لأذكرُهُ حيناً فأحسِبُهُ ... مِن ثِقْلِه جالساً منى على كَبِدى

وقال الشاعر الحكيم الأندلسى أبو الصلت أُمَيَّة بن عبد العزيز .

لى جَليسٌ عجبت كيف استطاعت ... هذه الأرضُ والجبالُ تُقِلُّهْ[1]
أنا أرعاهُ مُكْرَهاً وبقلبـــى ... منه ما يُقْلِقُ الجبال أقَلُّهْ
فهْوَ مِثْلُ المَشيبِ أكرَهُهُ مَرآ ... هُ ولكن أصُونُه وأُجِلُّهْ[2]

---

(١) تقله : تحمله .

(٢) ذلك لأن مفارقة المشيب إنما تكون بالموت ، قال مسلم بن الوليد :

الشيبُ كُرْهٌ وكُرْهٌ أن يفارقنى ... فاعجب لشىء على البغضاء مودود
يمضِى الشباب فيأتى بعده خَلَفٌ ... والشيب يذهب مفقوداً بمفقود

وكان أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى يستثقل جليساً اسمه زنباع ، فقال له رجل يوماً : ما الزَّنبعة فى كلام العرب ؟ قال : التثاقل ، ولذلك سُمِّى جَلِيسُنَا زنباعاً.

وقال الحمدونى :

سألتُكَ بالله ألاَّ صَدَقْتَ ... وعلمى بأنَّكَ لا تَصْدُقُ
أتُبْغِضُ نفسَك مِن ثِقْلِها ... وإلاَّ فأنت إذنْ أحْمَقُ

وقال بعضهم :

مَشَى فدعا مِنْ ثِقْلِهِ الحوتُ رَبَّهُ ... وقال : إلهِى زِيدَتِ الأرضُ ثامِنَه[1]

وقال آخر :

تَحْمِلُ منه الأرض أضعاف ما ... يَحمِلُه الحوتُ مِن الأرض

ومن كلامهم : مُجَالَسَةُ الثُّقلاء تُثِير الهموم ، وتجلب الغموم ، وتُؤلِمُ القلب ، وتقدح فى النشاط ، وتَطوى الانبساط ، وقالوا : فلانٌ ثقيل الطلعة ، بغيض التفصيل والجملة ، بارد السكون والحركة ، يَحْكِى ثقل الحديث المعاد ، ويَمشي فى القلوب والأكباد ، كأنَّ وجهَه أيَّام المصائب وليالى النوائب .

يا عَجَبى مِن جسم كالخيال ورُوحٍ كالجبال .

هو بين الجفْنِ والعين قذاة ، وبين الإِخْمَص والنَّعل حَصَاة .

هو أثقل مِن خَراج بلا غَلَّة ، ودواء بلا عِلَّة .

وقال جحظة البَرمكى فى ثقيل من أبيات :

يا لفظةَ النَّعْى بِمَوْت الخليلْ ... يا وَقْفَةَ التَّوديع بين الحُجُولْ

(١) يشير إلى الخرافة التي تقول إن الأرضَ يَحْمِلُهَا حوت .

يا طلعـــة النعْش ويا منزلا ... أقفرَ من بَعدِ الأنيس الحُلولْ
يا شربَةَ اليارج يا أُجرَةَ المَنـ ... ـزِلِ يا وَجْهَ العَذولِ الثقيلْ[1]
يا نهضَةَ المحبوب عن غَضْبَةٍ ... يا نِعمةً قد آذنَت بالرحيـــلْ
ويا كِتاباً جاء مِن مُخْلِفٍ ... للوَعْدِ مملوءا بعذرٍ طويلْ
يا شوكةً في قَدَمٍ رَخْصَةٍ ... ليس إلى إخراجها من سَبيلْ[2]
يا عِشْرَةَ المخدوم في رَحْله[3] ... ويا صعود السِّعْر عند المُعِيلْ
يا رَدَّةَ الحاجب عن قَسوةٍ ... ونَكْسَةً من بعد بُرء العليل

وقال أبو نواس :

ثَقيلٌ يُطالِعُنا مِن أمَمْ ... إذا سَرَّه رَغْمُ أنفي ألَمْ
لطَلْعَتِه وَخْزَةٌ في الحشا ... كوَخْزِ المَشارِطِ في المُحْتَجَمْ
أقول له إذ بَدَا لا بَدَا ... ولا حَمَلَتْه إلينا قَدَمْ
فَقَدْتُ خيالَكَ لا مِن عَمًى ... وصَوتَ كَلامِكَ لا مِن صَمَمْ

وقال بشار بن برد :

رُبَّما يَثْقُلُ الجليس وإن كا ... نَ خفيفاً في كفَّة الميزانِ
ولقد قلت حين وَتَّدَ في الأرْ ... ضِ ثقيلٌ أَرْبى على ثَهلانِ[4]

---

(١) اليارج أو الإيارَجة : معجون مسهل الجمع أيارج والكلمة فارسية معربة : ولك أن تستبدل بها : يا شربَةَ الخروع .

(٢) رخصة : لينة ناعمة .

(٣) في رحله : في منزله ، والمعيل . من له عيال كثر .

(٤) ثهلان = جبل .

كيف لم تحمِلِ الأمانةَ أرضٌ حَمَلَتْ فوقَها أبا سُفْيانِ

وفى البارد يقول بعضهم فى شعر الصُّولى :

دارِى بِلاَ خيش ولـكننى عقَدْت مِن خيْشى طاقَينِ
دَارٌ مَتى ما اشتَدَّ بِى حرها أنْشَدْتُ للصُّولِىِّ بيتَيْنِ

وقال كشاجم فى مُغَنٍّ :

غِناءُ بُدَيحٍ بأرض الحجازِ يَطِيب وأمّا بِحِمْصٍ فَلاَ
ابرْد الغِناء وبَرْد الهواء فإنْ جُمِعَا خِفت أنْ يقْتُلاَ

ولقى بَرْد الخيار المغنِّى أبا العَبَّاس المبرد فى يوم باردبالجِسْرِ . فقال له : أنت المبرّد وأنا برد الخيار واليومَ كما ترَى ، فاعْبُرْ بنا لا يهلكَ النَّاسُ من الفالجِ بسببنا .

ومِن كلامهم فى ذَمّ المُغَنِّين غير المُحْسِنين : يترنَّم فيُتْعِب ، ولا يُطْرب . ضرْبُهُ[1] ، يوجب ضرْبَه .

مِن عجائب غِنائه أنَّه يورد الشِّتاء فى الصيف ، وما رُئِى قط فى دارٍ مرَّتين ، وحضَر جحظة البرمكى — وكان يُغَنِّى ولا يحسن ، وكان دميما جاحظ العينين — حضَر مجلساً فيه الشاعر على بن بَسَّام ، فتوزَّعَ القومُ المخادّ ، فقال جحظة : فما لى لَمْ تُعطونى مخدَّة ؟ فقال على بن بسَّام : غَنّ فالمخادّ كلُّها إليك تصير . . . وفيه يقول ابن بسَّام :

يا مَن هجـــوناه فغَنَّانا أنتَ وبيتِ الله أهْجانا
سِيانِ أنْ غَنَّى لنا جَحظَةٌ أو مَرَّ مجنونٌ فغَنَّانا

---

(١) أى ضربه بالعود ونحوه . .

قال الحُصْرِي : وكان خالد يُسْتَبْرَد ، فبَعث بعضُ الظُّرفاء غلامَه يشترى له خمسة أرطال ثلجاً ، فأتاه بخالِد وقال : يا مَولاى ، طلبتَ خمسةَ أرطال وهذا حمل . . .

وتَغَنَّى بحضرَة محموم فقال : ويحكَ دَعْنا نَعْرَق . . .

* * *

والشيء يذكر بالشيء ، قال بعضهم يهجو رَجُلاً :

لَوْ كُنتَ ريحاً كانت الدَّبورَا أو كنتَ غَيماً لم تكن مَطيرا
أو كنتَ ماءً لم تَكُن طَهورَا أو كنتَ مُخّاً كنتَ مُخّاً رِيرَا[1]
أو كنتَ بَرْداً كنتَ زَمْهَرِيرَا

ومثله قول الآخر :

لو كنت ماءً لم تكُنْ بعذْب أو كنتَ سيفاً كنتَ غيرَ عَضْب[2]
أو كنتَ لحماً كنت لَحمَ كَلْبِ أو كُنتَ طِرْفاً كنتَ غيرَ نَدْبِ[3]

---

(١) الرير : المخ الرقيق يقال : مخ ريرورار .
(٢) غير عضب : غير قاطع .
(٣) الطرف : الكريم من الخيل والندب : السريع الخفيف .